# الموسم

مجلة فصلية مُصوّرة تعنى بالآثار والتراث

العدد الثامن – السنة الثانية 1990

# الغدير

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

مؤسس
أكاديمية الكوفة
هولندة

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی
شماره ثبت
تاریخ

المراسلات
KUFA ACADEMY
POSTBUS 1113
3260 AC OUD - BEYERLAND
NEDERLAND
www.almawsem.net
www.shiaparliament.com

Shiabooks.net

# صلح الحديبية في اطار نظام التعاهد الاسلامي

بقلم : مصطفى شيبة
محاضر بجامعة سبها ـ الجماهيرية الليبية

**ـ نظام التعاهد في الإسلام : ـ**

الاصل في علاقات المسلمين مع غيرهم ، هو ان تكون علاقات سلمية ، وأن الحرب ليست إلاّ علاجاً حينما لا تنفع الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله .

ولكن اذا وقعت الحرب وجنح الطرف المعادي إلى السلم فهنا يكون للمسلمين الاستجابة لهذا السلم يقول تعالى : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين»[1] .

ومن هنا فإن الإسلام يجعل للمسلمين الحق في الدخول في معاهدات مع غيرهم[2] ، ابقاء على السلم الأصلي أو رجوعاً إليه يوقف حرب بدأت مع أعدائهم .

قال الدكتور وهبة الزحيلي : «أقام الإسلام صرح المعاهدات عالياً كلما وجد السبيل إلى تحقيق مقاصده العامة فللأمام أن يتعاهد مع غير المسلمين اذا كانت في ذلك صلاح الدين والإسلام ، وكان يرجو أن يتألفهم بذلك على الإسلام»[3]

والإسلام أحاط المعاهدات بكل صنوف الاحترام كما هيأ لها كثيراً من الضمانات مما جعل المسلمين يرتفعون بها فوق مصالحهم وشهواتهم وعواطفهم ، فالإسلام حرص على الوفاء بالعهد منذ أيامه الأولى ، فقد وردت كثير من الأيات المكية تبين بوضوح ما للعهود والمواثيق من قدسية في شريعة الإسلام[4] ، منها قوله تعالى : «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون»[5] وقوله سبحانه : «وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم

---

( ١ ) سورة الأنفال الأيات ٦٢ ، ٦٣

( ٢ ) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢

( ٣ ) آثار الحرب في الفقه الاسلامي وهبة الزحيلي ص ٣٤٨ ،

( ٤ ) العلاقات الدولية والنظم القضائية في الشريعة الاسلامية ، عبد الخالق النواوي ص ٦٨ .

( ٥ ) المؤمنون آية ٨ ، والمعارج آية ٢٢ .

كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون»[٦] وقوله جل شأنه : «ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم»[٧] وقال : «وبعهد الله أوفوا»[٨] وقال : «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا»[٩]

إن هذه الآيات وغيرها تدل دلالة واضحة على ضرورة الوفاء بالعهد[١٠] ، بل إن الله سبحانه اعتبر الوفاء به في الآية الأولى صفة من صفات المؤمنين الصالحين ، وجعل سبحانه الخروج من واجب الوفاء بالعهد كالخروج من صفة الإنسانية في قوله تعالى : «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون»[١١] .

والإسلام نهى عن الغش والخداع الذي يصاحب المعاهدات لأجل سيطرة أمة على أمة أو أن تكون أمة أقوى من أمة ، وإنما شرع الإسلام المعاهدات لأجل اقرار السلام والأمن[١٢] ، قال تعالى : «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ان تكون امة هي أربى من امة»[١٣] أي لا تكونوا في افساد عهودكم ونقضها ثم العودة إلى تجديدها كالمرأة التي تنقض غزلها بعد ابرامه واحكامه ولا يجوز أن تقوم هذه العقود ـ العهود ـ على الغش لكي تكون أمة أقوى من أمة[١٤] .

إن التشريع الإسلامي التزم بالوفاء بالعهد الى حد بعيد ؛ أي ولو أدى الى عدم نجدة المسلمين المستضعفين خارج حدود الدولة الإسلامية والذين وقع عليهم اعتداء من قبل معاهدين عاهدوا الدولة الإسلامية على عدم القتال[١٥] علماً بأنّ الإسلام يعتبر المسلمين على اختلاف

---

(٦) سورة النحل آية ٩١ .
(٧) النحل آية ٩٤
(٨) الأنعام آية ١٥٢
(٩) الاسراء آية ٣٤
(١٠) يراجع الجهاد والحقوق الدولية العامة في الاسلام ظافر القاسمي ص ٤٨٨
(١١) سورة الانفال الآيات ٥٦ ـ ٥٧ .
(١٢) الوسيط في القانون الدولي العام ، محسن الشيشكلي ص ٣٤٢ .
(١٣) سورة النحل آيات ٩١ ـ ٩٢ .
(١٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢١ .
(١٥) انظر تفسير النسفي ج ٢ ص ١١٣ ، الرسالة الخالدة ، عبد الرحمن عزام ص ٨١ .
والعلاقات الدولية والنظم القضائية ، عبد الخالق النواوي ص ٦٨

اجناسهم وبلادهم أمة واحدة ، ومن ثم فإن أي عدوان يقع على طائفة منهم فهو عدوان على الأمة جميعها ، قال تعالى : «وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلاّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق» * .

إن هذه الآية تأمر بالوفاء بالعهد والإخلاص فيه وتنهى المسلمين عن الغدر والخيانة ومقاتلة قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ولو اساءوا إلى المؤمنين الذين وقعوا تحت حكمهم ، إنه لابد هنا من اتمام مدة العهد مهما طالت ومهما اشتد العذاب وسوء المعاملة الحالّة بأولئك المؤمنين وقد يتعجب كثير من الناس من هذا الأمر بخاصة اذا كان لديه الاعتقاد السائد بأن السياسة هي معرفة بالحيل ، وكيفية الخروج من المآزق ، ولو كان على حساب الأخلاق والمبادىء الإسلامية الأصيلة ، إن هذا الأمر قد يكون صحيحاً في كثير من العصور التاريخية وعند معظم الدول ، ولكنه غير صحيح بالنسبة للتشريع الإسلامي فقد جعل الإسلام الوفاء بالمعاهدات من مقتضيات الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة فهو ـ الوفاء بالعهد ـ أمانة من أمانات العقل والضمير وليس تدبيراً سياسياً للمراوغة والمكر، قال عبد الرحمن عزام : «أقامت الدعوة المحمدية قواعد العلاقات الدولية بين الناس على افتراض انهم إما مؤمنون ، وإما معاهدون ، وأما لا عهد لهم ، فأما المؤمنون فأخوتهم تامة وأما المعاهدون فيعاملون بمقتضى عهدهم ،واما من لا عهد له فامره يختلف بإختلاف احواله ومصير العلاقات معه يتبع احوالاً كثيرة وعلى كل حال لا يجوز قتاله مفاجأة من غير انذار ، ولا يكون هذا الإنذار من غير سبب ، ولا يكون السبب هو الطمع في ملك أو سلطان أو استغلال لخيرات أرضه أو تحكم في منافعه وتجارته واستثاره بما عنده من المواد الخام والمعادن ، أو اغراض عسكرية أو استراتيجية أو تهذيبية وتمدنية كما يدعي أهل الغرب في العصور الأخيرة أو تكون أمة هي أرقى من أمة ، أو جنس افضل من جنس»[١٦] .

ان احترام المعاهدات في الإسلام والوفاء بها ينبغي ألاّ يتأثر بضعف المسلمين وقوتهم في مدة نفاذها فهذا الامام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة يقول : «وإذا وادع المسلمون قوماً من المشركين فليس يحل لهم أن يأخذوا شيئاً من اموالهم الاّ بطيب انفسهم للعهد الذي جرى بيننا وبينهم ، فإن ذلك العهد في حرمة التعرض للأموال والنفوس بمنزلة الإسلام ، فكما لا يحل شيء من اموال المسلمين إلا بطيب انفسهم ، فكذلك لا يحل شيء من اموال المعاهدين»[١٧]

اما اذا أخل المعاهدون بالمعاهدة مع المسلمين فيكون المسلمون في حل من قتالهم ، كذلك اذا لمسوا من اعدائهم ـ معاهديهم ـ امارات الخيانة ، فهنا يجوز لهم نقض العهد مع اعدائهم وفي

---

(*) الأنفال من الآية ٧٣

(١٦) الرسالة الخالدة ، ص ١٠٣ وما بعدها .

(١٧) انظر السير الكبير للشيباني ج ١ ص ١٢٩ .

ذلك ، قال تعالى«وإن نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون»[١٨] وقال : «وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين»[١٩] أي بمعنى واما تخافن من معاهدين خيانة ونكثاً لأمارات لاحت لك فاطرح اليهم العهد على سواء أي على طريق مستقيم وذلك ان تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم بوضوح انك قطعت معهم العهد أي لا تناجزهم الحرب وهم متوهمون بقاء العهد فتكون خيانة منك والله لا يحب الخائنين[٢٠] .

لقد كان صلى الله عليه وسلم مثالاً في الوفاء بعهوده ، فقد كان وفاؤه وفاءً مطلقاً حتى أقدم على رد كل مسلم فرّ إليه من قريش هارباً بعد معاهدة الحديبية رغم علمه المسبق لما سيتعرضون له من فتنة وتعذيب ، لكنه ردهم وفاءاً للشرط الذي كان بالمعاهدة والذي سنفصل فيه القول بعد قليل

ولقد سلك اصحاب رسولنا الكريم مسلك رسولهم في الوفاء بالمعاهدات ونذكر من ذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر قطعة من كتاب الخليفة عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص قائد جيشه في فتح العراق حول الوفاء بالعهد يقول فيها : «إني قد القي في روعي انكم اذا لقيتم العدو هزمتموه فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فإن لا يعب احد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمي ما كلمه به وكان عندهم اماناً فاجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك ، والوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بغية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم»[٢١] وعهد عمر أيضاً لأهل بيت المقدس وقد جاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم»، هذا ما اعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين اجمعين أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر صلتهم ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم . . .»[٢٢] .

وعهد عمرو بن العاص لأهل مصر ومما جاء في هذا العهد «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وصلتهم وأموالهم وكنائسهم

---

( ١٨ ) سورة التوبه آية ١٢

( ١٩ ) سورة الانفال آية ٥٩

( ٢٠ ) انظر ابن كثير المصدر السابق حـ ٣ ص ٣٣٧ .

( ٢١ ) تاريخ الطبري حـ ٣ ص ١٢ .

( ٢٢ ) تاريخ الطبري حـ ٣ ص ١٠٥ .

وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولاينتقص . . .»[٢٣] وهكذا كانوا في سائر عهودهم .

ولعل هذا الوفاء وهذه العدالة السمحة التي يتسم بها المسلمون في عهودهم صادرة عن إيمان عميق بأن العلاقات مع الناس يجب ان تقوم على اساس احترام انسانية الغير وعاطفته ومعتقده ومتجاوبة مع منطوق الحديث القدسي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» .

وإلى جانب ما ذكرنا من وجوب احترام المعاهدات والوفاء بها وفاءً مطلقاً يجب ان تتوافر في المعاهدات الاسلامية شروط أخرى وهي : أن تكون المعاهدة مبنية على التراضي من الطرفين ، لأن الإسلام لا يرى أية قيمة لمعاهدة مبنية على القهر والغلبة ، وهذا الشرط تملية طبيعة العقد والتعاقد «فالعقد شريعة المتعاقدين» ويجب ان تكون هذه المعاهدة بينة الأهداف تحدد الالتزامات والحقوق تحديداً واضحاً لاغموض فيها ولا التواء[٢٤] وقد حذر سبحانه وتعالى في ذلك بقوله : «ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها . . .»[٢٥] كما يجب ألا تكون الشروط - جوهر المعاهدة - فيها مساس بعقيدة الاسلام او انها تتعارض ومبادئه العامة[٢٦] وروحه ومقاصده .

تحول ذلك الصلح وتلك الشروط المجحفة الى نصر للاسلام وفتح عظيم باذن الله[٢٧] ، وكل هذا بفضل اتباع المنهج الاسلامي وعدم الاخلال به واعني هنا باللأخص جانب الوفاء بالعهد كما كان هذا الصلح فتحاً للقلوب أيضاً ، فقد دخل في الاسلام مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وهما من الذين فتح الله على ايديهما الشام ومصر . . .

وهكذا فإن المعاهدات في الاسلام ينبغي ان تخضع في احترامها والوفاء بها إلى قانون ثابت لا يتأثر بضعف المسلمين وقوتهم ولا يتأثر بانتصارهم أو هزيمتهم فالمكاسب والانتصارات لا تأتي إلا عن طريق الصدق والفضائل ، ولكي يأتي الصلح أو المعاهدة بثمارها لابد ان يلازمها الاحترام والوفاء وألا يعتريها غش أو خداع . ولقد جاءت معاهدة الحديبية مثالاً في الالتزام بالصدق والوفاء بشروطها وإن كانت على حساب مصلحة المسلمين الظاهرة في ذلك الوقت حسبما توهموا لقد جاءت هذه المعاهدة بخير النتائج . وانتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً ، وفتح الله عليهم فيها فتوحاً كثيرة ، وظهر أن تلك الشروط التي توهموا في ظاهرها الغبن - بفضل الوفاء بها - فتحاً بإذن الله تعالى

---

( ٢٣ ) نفس المرجع والجزء ص ١٩٩ .

( ٢٤ ) الاسلام عقيدة وشريعة محمود شلتوت ص ٤٥٦ - ٤٥٧

( ٢٥ ) سورة النحل آية ٩٤ .

( ٢٦ ) الثقافة الاسلامية د . شعبان محمد اسماعيل ص ٢٣٩ . وعبد الخالق النواوي ، المصدر السابق ص ٦٨ .

( ٢٧ ) يراجع الغزالي المصدر السابق ص ٣٦٢ . حياة محمد ، محمد حسين هيكل ص ٣٨٣

## ـ الحديبية ظروفها واسبابها : ـ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه انه دخل مكة وطاف بالبيت ، من غير تحديد للزمان[٢٨] فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ففرحوا بهذا الخبر واستبشروا به لطول عهدهم بمكة والكعبة حيث كانت نفوسهم تتطلع من شوق الى الطواف حولها تطلعاً شديداً وفي نفس الوقت لم يكونوا يشكون ان هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، ومن ثم فقد تهيأوا للخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة ، وقد خرجوا من المدينة في ذي القعدة في السنة السادسة هجرية معتمرين ـ لا يريدون حرباً ـ إلى الحديبية في الف وخمسمائة رجل ومعهم الهدي واحرموا بالعمرة ليعلم الناس انهم خرجوا زائرين للبيت ومعظمين له[٢٩] لا محاربين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش حتى إذا كان قريباً من «عسفان»[٣٠] أتاه عينه قائلاً : إني تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش[٣١] ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالثنية بركت راحلته ، فقالوا : خلأت[٣٢] القصواء[٣٣] ، خلأت القصواء : فقال : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل[٣٤] والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله ويسألونني فيها صلة الرحم إلا اعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت به وسار حتى نزل بأقصى الحديبية ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان الى قريش وقال : أخبرهم إنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً ، وأدعهم الى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم ان الله مظهر دينه بمكة[٣٥] ، وفي تلك الأونة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عثمان قد قتل فدعا المسلمين إلى البيعة فبايع المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ألا يفروا ، واخذ عليه السلام بيد نفسه وقال هذه عن عثمان فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة سمرة التي انزل الله عنها في كتابه العزيز : «لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعون تحت

---

( ٢٨ ) راجع ابن كثير في تفسير سورة الفتح آية ٢٧ «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق»

( ٢٩ ) ابن هشام جـ٢ ص ٣٠٨ ، زاد المعاد جـ١ ص ٣٨٠

( ٣٠ ) موضع بين مكة والمدينة .

( ٣١ ) الجماعة من الناس لبسوا من قبيلة واحدة

( ٣٢ ) خلأت : ـ لم تبرح مكانها .

( ٣٣ ) ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

( ٣٤ ) وهنا إشارة الى فيل ابرهه الذي حبسه الله تعالى عن الدخول في مكة المكرمة .

( ٣٥ ) زاد المعاد جـ ١ ص ٣٨١ .

الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً»[٣٦] لقد تبع تبليغ عثمان لرساله رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاء ومفاوضون كان آخرهم ان بعثت قريش سهيل بن عمرو الذي حين رآه الرسول صلى الله عليه وسلم مقبلاً ، قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . وقال : اكتب بيننا وبينكم كتاباً»[٣٧]

لقد عاد رسل قريش الذين تكلموا باسمها الى مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نسكهم[٣٨] مما رأوه من نصح المسلمين وحرصهم على عدم الحرب وتعلقهم برسولهم الكريم ولما رأوه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق .

ورغم أن قريشا بعثت الرسل للتفاوض مع المسلمين إلا ان منها فريقاً حاول اشعال المعركة لكن المسلمين لزموا الهدوء وضبط النفس ، فعن ابن عباس ان قريشاً بعثوا اربعين رجلاً منهم أو خمسين وأمروهم ان يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من اصحابه أحداً ، فأخذوا وأتى بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم وخلى سبيلهم وكانوا رموا في المعسكر بالحجارة والنبل»[٣٩] ، كذلك فقد كان من فظاظة قريش انها تعرضت لرسل المسلمين إليها فقد كاد خراش بن أمية الخزاعي أن يقتل لولا ان انقذه الأحابيش فرجع وقد عقر جمله[٤٠] ، والرسل عادة لا تقتل في حين كانت رسل قريش إلى المسلمين تغدو وتروح دون أن يعترضها أحد وكل هذا من واقع عفو المسلمين وصفحهم وحلمهم ، وفي هدوء المسلمين وسكينتهم وحلمهم وفظاظة قريش وغلظتها نزل قوله تعالى: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً»[٤١] .

## شروط الصلح والسمو الأخلاقي للتعاهد في الاسلام :

استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمر وهو أرغب مايكون في موادعة القوم رغم قدرته على تحكيم السيف ، وتكلم مفاوض قريش سهيل بن عمرو فأطال الكلام وعرض شروطه ووافق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلاّ أن تدون تلك الشروط

---

(٣٦) سورة الفتح آية ١٨

(٣٧) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٣١٦ ، وكتاب المغازي باب عمرة القضاء .

(٣٨) فقه السيرة ، محمد الغزالي ص ٣٥٤ .

(٣٩) ابن هشام ، جـ٢ ص ٣١٤ .

(٤٠) ابن هشام جـ٢ ص ٣١٤ .

(٤١) سورة الفتح آية ٢٦ .

في وثيقة وحدثت عند المسلمين دهشة كبيرة للطريقة التي سلكها رسول الله مع اعدائه ولموافقته على شروطهم وملاينته لهم[٤٢] ، ولعل السبب هنا هو أن تقدير الامور لم يترك لرسول الله واصحابه بل كان للإلهام الأعلى فيه نصيب كبير ، فالله الذي حبس الناقة ان تتابع سيرها هو الذي لم يأذن لهذه الجيوش ان تتابع زحفها وتشهر سيوفها ورماحها على ذلك البلد الأمين ، وقد تحرز نصراً للإسلام أقل في جدواه وأهميته مما لو كان الأمر بهذا الطريق الذي لم يرض معسكر المسلمين وذلك لما فيه من شروط مجحفة ظاهرها الغبن ، جعلت بعضهم يغلظ القول مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما فعله عمر بن الخطاب بعد نهاية المفاوضة ولم يبق الا الكتاب ، فقد أتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا[٤٣] ؟ قال ابو بكر : يا عمر الزم غرزه[٤٤] فاني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : اوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ! قال : فكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي واعتق من الذي صنعت يومئذٍ[٤٥] ،وتم الصلح بين الفريقين ، وكان الذي تولى كتابته هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومما جاء فيه : بعد أن قال عليه السلام : هذا ما قاضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان نخلو بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب انا اخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل فقبل الرسول بذلك ، قال سهيل : وعلى ألاّ يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فقال المسلمون : سبحان الله : كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟! وبينما هم كذلك اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من اسفل مكة حتى رمى بنفسه وسط المسلمين ، فلما رأى سهيل ابا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ثم قال : يا محمد ، قد لجت[٤٦] القضية بيني وبينك قبل ان يأتيك هذا ، قال : صدقت فجعل سهيل ينتر[٤٧] ابنه بتلبيبه ويجره ليرده الى قريش ، وصاح ابو جندل يا

(٤٢) حياة محمد ، محمد حسنين هيكل ص ٣٨٣ .

(٤٣) الدنية : الذل والأمر الخسيس .

(٤٤) الزم غرزه : أي الزم أمره ، والغرز للرجل : بمنزلة الركاب للسرج .

(٤٥) ابن هشام ، جـ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٤٦) لجت القضية : تمت .

(٤٧) ينتر : يجذب جذباً شديداً .

معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى مابهم ورده رسول الله قائلاً : يا ابا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، واعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم»[٤٨] .

وقد اتفق الفريقان على وقف الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، وعلى انه من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم ترده عليه .
وانه من أحب أن يدخل في عهد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه[٤٩] .

وبعد ان فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح قام إلى هديه فنحره ثم حلق رأسه ، ولما رأى المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق عظم عليهم ذلك لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة ، ولكنهم مع هذا تواثبو وأخذوا ينحرون ويحلقون رؤوسهم ويقصرون لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك .
وفي مرجعه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة نزل قوله تعالى : «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً»[٥٠] .

حتى قال : عمر رضي الله عنه أوفتح هو يا رسول الله ؟
قال : نعم :[٥١]

والسؤال هنا ما الذي استفاده المسلمون من هذا الصلح الذي فيه اعطى وفيه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما ألحت عليه قريش ، وتحمله المسلمون من قوى ايمانهم وشدة طاعتهم للرسول ، واعتبرته قريش انتصاراً ومكسباً لها ؟ نقول : لقد فتح هذا الصلح باباً جديداً لانتصار الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية وكان باباً إلى فتح مكة ، ودعوة ملوك العالم الى الإسلام ، وصدق الله العظيم اذ يقول : «وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون»[٥٢] .

---

(٤٨) ابن هشام ، جـ٢ ص ٣١٨ .
(٤٩) السيرة لابن هشام جـ٢ ص ٣١٧ - ٣١٨ .
(٥٠) سورة الفتح آية (١ - ٣) .
(٥١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية جـ٣ ص ١٤١٢ .
(٥٢) سورة البقرة من الآية ٢١٤ .

## .تحول المعاهدة الى فتح ونصر بفضل مكاسبها:

صحيح ان المسلمين تحملوا شروط تلك المعاهدة على مضض لانها شروط كان ظاهرها الغبن ومع هذا فقد أتت هذه الشروط بخير النتائج ، تلك النتائج التي اكسبت الإسلام والمسلمين نصراً عظيماً .

ولقد كانت اولى مكاسب هذا الصلح اعتراف قريش بمكانة المسلمين ـ وقد كانوا يومئذ جماعة غير معترف بها ـ والتسليم لهم كفريق قوي تبرم معه المعاهدات[٥٣] ، ومن هذه المكاسب حصول الهدنة بين الطرفين اذ لاحرب بينهما وهذا من شأنه ان يوفر للمسلمين الأمن والسلام كي يقوموا بدعوتهم خلال اختلاطهم بالمشركين فيطلع المشركون على محاسن الإسلام وما صنع من عجائب ومعجزات في تهذيب الأخلاق وتطهير العقول والقلوب من الشرك والوثنية ، فكان في كل ذلك باعث قوي على تفهم الإسلام والاعتراف بتأثيره حتى أنه لم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام من العرب اكثر من الذين دخلوا فيه ، خلال خمسة عشرة سنة يقول الإمام ابن شهاب الزهري (المتوفى سنة ١٢٤هـ) ، «فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب اوزارها وأمن الناس وكلم الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم احد بالاسلام يعقل شيئاً الّا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[٥٤] وقال ابن هشام : والدليل على قول الزهري ان رسول الله خرج الى الحديبية في الف واربعمائة ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[٥٥] ، كما استفاد بهذه الهدنة المستضعفون فقد أسلم على يد أبي جندل عدد كبير من أبناء قريش في مكة حتى ان قريش ضاقت ذرعاً بهذا الداعية ـ وقد رأينا كيف اصرت أول الامر عند ابرام الصلح على رده الى مكة حينما جاء فاراً بدينه إلى المسلمين ـ وقد لحق عدد كبير من هؤلاء المستضعفين بأبي بصير وهو ممن فروا بدينهم من قريش ـ وتمركزوا في طريق القوافل يعترضون عير قريش ، كما انضم اليهم ابو جندل واصبحوا خطراً على قريش حتى ان قريش ناشدت رسول الله ان يلحقهم به في المدينة ففعل ما طلب منه ، ولقد كان من النتائج المفيدة لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم المسالم وما كان من زهد في الحرب ورغبة في الصلح مع الحلم الذي كان يتصف به والذي كان منه وقت كتابة المعاهدة واشتراط الشروط ان تغيرت نظرة القبائل العربية التي لم تدخل في الدين الاسلامي بعد الى هذا الدين وإلى الداعي له ، ومنذ ذلك الوقت نشأ في نفوسهم اجلال واحترام للإسلام

---

(٥٣) موكب النور في سيرة الرسول ، محمد زكي بيضون ص ٢٦٤ دار الكتاب العربي ط ١٩٧٠م بيروت ـ لبنان .

(٥٤) انظر سيرة ابن هشام جـ٢ ص٣٢٢ .

(٥٥) المرجع نفسه جـ٢ ص ٣٢٢ .

ومبادئه الإنسانية التي لمسوها من معاملة الرسول وصبره على عدوه والتماسه السلم والسلام مع قدرته على الحرب والقتال .

لقد كان كل ذلك من حسنات هذا الصلح فانظر كيف تحولت هذه المعاهدة الى فتح مبين .

أهم المراجع


١ ـ تفسير القرآن العظيم الحافظ ابن كثير
٢ ـ تفسير النسفي للنسفي .
٣ ـ تاريخ الطبري ابن جرير الطبري
٤ ـ صحيح مسلم للامام مسلم .
٥ ـ السير الكبير للشيباني .
٦ ـ السيرة النبوية الشريفة لابن هشام
٧ ـ زاد المعاد لابن قيم الجوزية .
٨ ـ الرسالة الخالدة عبد الرحمن عزام
٩ ـ الاسلام عقيدة وشريعة محمد شلتوت .
١٠ ـ فقه السيرة محمد الغزالي .
١١ ـ آثار الحرب في الفقه الاسلامي وهبة الزحيلي
١٢ ـ العلاقات الدولية والنظم القضائية في الشريعة الاسلامية عبد الخالق النواوي .
١٣ ـ الوسيط في القانون الدولي العام محسن الشيكلي .
١٤ ـ موكب النور في سيرة الرسول محمد زكي بيضون
١٥ ـ حياة محمد محمد حسنين هيكل .
١٦ ـ الجهاد والحقوق الدولية العامة في الاسلام ظافر القاسمي
١٧ ـ الثقافة الاسلامية شعبان محمد اسماعيل


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی